الفصل الخامس

تـاريـخ الـحضارة الإسلامية

الفكر الديني... بين الموت والحياة

ثمة فرق بين الإسلام والمسلمين، فالإسلام حيٌّ، بينما المسلمون في هذا العصر أموات. إن إحدى القضايا التي يهتم بها علماء الاجتماع اليوم هي حياة الإسلام في التطبيق، أيّ أننا نلاحظ ظاهرة انتشار الإسلام في كلّ قارات العالم: آسيا وأفريقيا وأميركا وأوروبا وحتى أستراليا. وهناك العديد من المقالات المترجمة التي نشرَتْها الصحف أخيراً حول هذا الموضوع، وإنني شخصيّاً لاحظت من خلال ما نُشر أن ما يثير الجدل هو كيفية انتشار الإسلام في أميركا بشكل تلقائي، خاصة في الطبقة المستضعفة، أيّ الطبقة نفسها التي ظهر الإسلام في أوساطها منذ بداية البعثة، ولا يستطيع أحد أن يوقف هذا المدّ. وكذلك الأمر في أوروبا حيث ينتشر الإسلام حتى في أوساط العلماء وحَمَلة الشهادات العليا. أما في القارة السوداء، أفريقيا، فالأمر غريب، حيث ينفق المبشّرون المسيحيون ميزانيات ضخمة إضافة إلى مؤسساتهم ومشاريعهم إلا أنهم لا يحرزون نجاحاً يذكر، بينما الإسلام يتقدم بشكل تلقائيّ ومن فردٍ إلى فرد.

وإذا ما اعتبرنا أن الفكر الديني ميت [ويحتاج إلى الإحياء] فإن ذلك إنما هو في البلاد التي تُعتبر مسلمة منذ قرون، حيث تضافرت عدد من العوامل التي أدت إلى وقف هذا الفكر في الأدمغة، أيّ جعلته في حالة بين الموت والحياة، كما هو حال شعوبنا. فليست القارة السوداء تحتاج لبحث ودراسة مناهج إحياء الفكر الديني، بل ينبغي الاهتمام هناك بإيجاد الفكر الديني، كذلك الأمر بالنسبة إلى أوروبا والشرق الأقصى واليابان وما شاكل، حيث الأرضية مهيأة وينبغي العمل على ايجاد الفكر الديني من جديد. إنما شعوبنا

هي التي تحتاج إلى إحياء الفكر الديني، ذلك لأن الدين والفكر الديني موجودان في أوساطنا ولكنهما في حالة بين الموت والحياة، وهي حالة خطيرة جدّاً يجب علينا الاهتمام بها[1].

الإسلام الممسوخ والتخلف

تُعدُّ البلاد الإسلامية من أكثر بلاد العالم تخلّفاً وانحطاطاً، إذا ما استثنينا بعض البلاد، ليس في مجال الصناعة فقط، بل في مجالات العلم والأخلاق والإنسانية والقيم. لماذا؟ إما أن نجيب: بسبب الإسلام، أيّ أن حقيقة الإسلام موجودة في أدمغة هذه الشعوب ونفوسها، ولكنه دين يحمل خاصية تتسبب في تخلف الشعوب، وهذا ما يتشبث به أعداء الدين الذين يتخذون من حالات التخلف الفعلية للمسلمين أكبر حرب إعلامية ضد الإسلام. وإما علينا أن نعترف بأن حقيقة الإسلام الأصلية غير موجودة في أدمغتنا ونفوسنا، بل إن الموجود فينا هو الفكر الديني بصورة ممسوخة، فالتوحيد الذي نؤمن به توحيد ممسوخ، وكذلك النبوّة ممسوخة، الشيء نفسه بالنسبة للولاية والإمامة. وأيضاً فإن إيماننا بالقيامة يعاني من الحالة نفسها إلى حدٍّ مّا. وكل التعاليم الإسلامية الأساسية تغيّرت عن حقيقتها في أدمغتنا، فيوجد في الدين مبدأ الصبر والزهد والتقوى والتوكل، إلا أن كل هذه المبادئ وبدون استثناء ممسوخة في أدمغتنا[2].

هل الإسلام دين القوة والمال؟

إن تجنب العنف في الدعوة والتبشير يحظى بالدرجة الأولى من الأهمية. أيّ أنه يجب أن لا تكون الدعوة نفسها مصحوبة بالعنف، وأن لا يكون التبشير بالدين بالإكراه والإجبار فالمسألة التي يثيرها الكثير هي هل أساس الدعوة يقوم على القوة والإكراه، أم لا؟

---

(1) المصدر السابق، ص112-113.

(2) المصدر السابق، ص121.

وهذا ما ركّز عليه كثيراً المبشرون المسيحيون في العالم. فهم أطلقوا على الإسلام «دين السيف» أيّ أن الإسلام لا يستخدم لغة غير لغة السيف في الدعوة.

ولا شك أن الإسلام هو دين السيف أيضاً، وهذا هو من كمال هذا الدين وليس دليل نَقْصه. إلا أن الذين يقولون بأن «الإسلام دين السيف» إنما يعنون أن السيف هو الوسيلة التي يستخدمها في دعوته، فهم يريدون القول بأن منهج الرسول في الدعوة كان «أُدع بالسيف» بينما يقول القرآن الكريم: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ...﴾. وكان هذا هو منهج الرسول ﷺ عمليّاً. فهم يغالطون ويزعمون بأن الإسلام هو دين «الدعوة بالسيف» وقد وجهوا الإهانات في بعض كتبهم إلى النبيّ ﷺ، حيث رسموا كاريكاتيراً لرجل يحمل القرآن بيدٍ والسيف بيد أخرى، وهو يخاطب مجموعة من الناس أن آمنوا بهذا الكتاب وإلا ضَرَبتُ أعناقكم. وقد قام المبشرون المسيحيون بالكثير من هذه الممارسات.

وأقول إننا نحن المسلمين قد نتحدث أحياناً بكلام لا يتفق مع التاريخ ولا مع القرآن، بل يتفق مع مزاعم الأعداء، أيّ أننا نعبِّر عن موضوع صحيح بأسلوب يتحول إلى سلاح بيد العدوّ. وذلك كما يقول البعض:

«إن الإسلام تقدم بشيئين: بمال خديجة وسيف عليّ» أيّ بالقوة والمال. فما هو هذا الدين الذي يتقدم بالمال والقوة؟. هل توجد في القرآن آية واحدة تتحدث عن أن الإسلام انتشر بالمال والقوة؟ وهل قال الإمام عليّ أن الإسلام انتشر بهذين الأمرين؟ لا شك في أن أموال السيدة خديجة -رضي الله عنها- أفادت المسلمين، ولكن هل أُنفق مالها على الدعوة الإسلامية مباشرة؟ أيّ أن أموالها دُفعت للأفراد لكي يؤمنوا بالإسلام؟ هل يوجد هذا الأمر في أيّ مصدر تاريخيّ؟ كلا! إن السيدة خديجة رضي الله عنها وضعت كل أموالها تحت تصرف الرسول الكريم ﷺ حينما كان يمرّ هو والمسلمون معه بظروف قاسية جدّاً لكي ينفقوها على أُمورهم المعاشية، لا لكي يستخدمها الرسول -والعياذ بالله- كرشاوى للإنتماء إلى الإسلام. ولم تكن أموال السيدة خديجة رضي الله عنها كثيرة بدرجة كبيرة...

فلولا أموال السيدة خديجة رضي الله عنها، لربما كان الفقر والصعوبات المالية دَمّرت حياة المسلمين. فأموالها إذاً خدمت الإسلام والمسلمين، ولكن لا من جهة دفعها للأفراد لكي يؤمنوا بالإسلام، وإنما من جهة أنها أشبعت المسلمين الجَوْعى، فقد استطاعوا أن يسدّوا رمقهم بهذه الأموال.

كما أن سيف عليّ عليه السلام خدم الإسلام أيضاً، ولولا سيفه، لكان مصير الإسلام غير ما هو عليه. ولكن لا يعني هذا أن سيف علي كان على رقاب الناس لإجبارهم على الدخول في الإسلام، وإنما كان يقف بوجه سيوف الأعداء حينما كانوا يحاولون اقتلاع الإسلام من الجذور. ويكفينا أن ندرس في هذا المجال غزوات بَدْرٍ وأُحُد والخندق حيث وقف عليّ بسيفه مدافعاً عن الإسلام والمسلمين.

. . . فعبارة «لولا سيف عليّ لم يكن الإسلام موجوداً» لا تعني أن سيف عليّ أجبر الناس على اعتناق الإسلام، بل تعني أنه لولا دفاع هذا السيف عن الإسلام لاقتلع الأعداء الإسلام من جذوره. كما نستطيع القول بأنه لولا مال السيدة خديجة رضي الله عنها، لكان الفقر قد قضى على المسلمين. فأين هذا التفسير من ذلك الكلام الخاوي؟[3]

حقيقة قصة حرق مكتبة الإسكندرية

لقد عمل اليهود ـ بالدرجة الأولى ـ وأياديهم البهائيون ـ على اختلاق كثير من القصص التاريخية [لتشويه صورة الإسلام والمسلمين]. ويحدث أحياناً أن يقوم يهوديّ أو مسيحيّ باختلاق شيء ضد المسلمين ثم يعمل على بثّه في الآفاق حتى يدخل الكتب شيئاً فشيئاً، ثم يُعتبر تدريجيّاً من الحتميات بحيث يصدقه المسلمون أنفسهم. ومثال ذلك هو قصة حرق مكتبة الإسكندرية.

بعد أن زحف الإسكندر على الشرق واستولى على مصر وإيران والهند، أنشأ مدينة [في مصر] وسمّاها الإسكندرية، التي ما لبثت أن أصبحت مركزاً للعلماء وأنشئت في إحدى مدارسها مكتبة كبيرة، ومن الثابت اليوم في تواريخ

(3) مطهري. سيره نبوى [السيرة النبوية]، ص131-134.

المسلمين والمسيحيين أن هذه المكتبة قد تعرضت للنهب والحرق مرات عدة قبل أن تُفتح الإسكندرية على يد المسلمين. وبعد أن اعتنق إمبراطور الرومانية الشرقية الدين المسيحيّ قضى على مدرسة الإسكندرية لأنه كان يعتقد بأن الفلسفة تتناقض مع المسيحية، وكما هو معلوم فإن سبعة من الفلاسفة لجؤوا إلى إيران (إلى بلاط أنو شيروان)، ولم تبق في الإسكندرية أيّة مكتبة. وقد أثبت المؤرخون المسيحيون اليوم -مثل ويل دورانت وغيره- أن مكتبة الإسكندرية قد تعرضت لأضرار قبل فتحها بواسطة المسلمين، ولما وصل المسلمون إليها لم تكن المكتبة موجودة أساساً.

ومن جهة أخرى، فإن المؤرخين المسلمين والمسيحيين ذكروا تفاصيل الفتوحات الإسلامية في كلّ من إيران ومصر أو البلاد الأخرى ولا سيما تفاصيل فتح الإسكندرية. ثم كُتبت في القرنين الثاني والثالث الهجريَيْن موسوعات تاريخية ضخمة، مثل: تاريخ اليعقوبي، وتاريخ الطبري، وفتوح البلدان (للبلاذري)، وهي مصادر تاريخية منظمة الوثائق ومرتبة، ولكن لم يكتب أيّ من هؤلاء لم يكتب بأن الإسكندرية كانت تضم مكتبة في تلك الفترة وأن المسلمين قاموا بحرقها. يكتب ويل دورانت: «كان قِسّيسٌ مسيحيّ يقطن الإسكندرية في ذلك الزمن، وقد كتب كل تفاصيل أحداث فتح الإسكندرية، ولا يزال كتابه موجوداً، إلا أنه لم يذكر أيّ شيء عن حرق الكتب». إلا أنه وفي أواخر القرن السادس الهجري أيّ بعد حوالى ستمائة عام ـ وفي القرن السابع الهجري ظهر عدد من المسيحيين الذين لم يكونوا مؤرخين وحاولوا رفع تهمة حرق كتب الإسكندرية عن المسيحية، فزعموا دون أن يقدموا أيّ دليل بأنه عندما جاء عمرو بن العاص إلى الإسكندرية، كانت هناك مكتبة ضخمة جدّاً، فكتب إلى الخليفة يستفسره عن الموقف من هذه المكتبة؟ فكتب إليه الخليفة بأن محتويات هذه الكتب إما أن تكون موافقة للقرآن، فالقرآن يكفينا عنها، وإما أن تكون مخالفة للقرآن، فإن ما يكون كذلك لا ينفعنا، إذن فأحْرِقْها جميعاً، وقد أحرقها عمرو بن العاص دفعة واحدة.

ثم بعد ذلك وفي القرنين الثامن والتاسع الهجريين نقل المسلمون أنفسهم شيئاً فشيئاً هذه القصة المختلقة في كتبهم دون التفكير بأنه لو كانت هذه الحادثة حقيقية لنقلها مؤرخو القرن الأول في تواريخهم.

وهناك عدد من القرائن الأخرى تثبت كذب هذه القصة، تخرج عن إطار بحثنا... إلا أن زيف هذا الموضوع ثابت لدى الباحثين والعلماء والمؤرخين، ولكن الأعداء وعملاءهم يتناقلونها مع معرفتهم بأنها كاذبة، بينما يتناقلها الأصدقاء دون وعي!

بين المسيحية والإسلام

أطلق المسيحيون هذه الكلمة ولا تزال ترددها الأفواه، وهي: أن الإسلام دينٌ، والمسيحية دينٌ، ولا معنى للبحث عن ميزات الإسلام ونقاط ضعف المسيحية. فنقول: الإسلام دين التوحيد والمسيحية دين التثليث، الإسلام دين المساواة والمسيحية دين التفرقة، وأمثال ذلك، فماذا تعني هذه الموازنات؟ وينبغي عدم البحث في هذه الأمور من الأساس. ويقولون إنه جاء في الإنجيل: تُعرف كل شجرة بثمارها. فما الفائدة في دراسة مضمون الإسلام، ومضمون المسيحية؟ بل علينا البحث عن ثمرات هذين الدينين. علينا البحث عن ثمرة المسيحية، فالبلاد المسيحية هي بلاد متحضرة ومتقدمة في مجال الحضارة المادية كما أنها متقدمة في الثقافة والأمور الإنسانية. وعندما نبحث عن المسلمين نجدهم أناساً متخلفين. ويكفي هذا من وجهة نظر الفلسفة ـ أيّ الفلسفة التي تعتبر النتائج العملية هي معيار الحقيقة ولا تؤكد على أيّة مسألة غير معيار العمل ـ أن ندين الإسلام بالمقارنة مع المسيحية.

ولكن الردّ على هذا الكلام واضح وبَيِّن. فإنك حينما تلاحظ مجتمعاً إسلاميّاً ومجتمعاً مسيحيّاً، قد تفكر بأن مبادئ المسيحية مطبّقة مائة بالمائة في هذا المجتمع المسيحيّ، وأن هذه المسيحية (المطبَّقة) هي التي وصلت إلى هذه النتائج، وأن مبادئ الإسلام مطبّقة أيضاً في المجتمع الإسلامي، وأن الإسلام «المطبَّق» هو الذي أدّى إلى هذه النتيجة. بينما القضية، في واقع الأمر، مختلفة تماماً، فعليك أن تلاحظ المسألة ببصيرة نافذة.

قال الشيخ محمد عبده في الردّ على كاتب مسيحيّ كان قد استدل بهذا الأسلوب: إنه استدلال صحيح أن نقول بأن كل شجرة تُعرف من خلال ثمارها، إننا نوافق على هذا المبدأ أيضاً ولكن شرط أن نطمئن إلى أن هذه

الثمرة هي فعلاً ثمرة هذه الشجرة. إذن فإن الأساس هو أن نعرف أن هذه الثمرة هي مائة بالمائة لهذه الشجرة، لا أن نظن أنها لهذه الشجرة بينما هي في واقع الأمر تعود لشجرة أخرى، ونحن نقول هنا أيضاً: إن سبب تميز الإسلام على المسيحية هو أننا كنا أكثر أُمم العالم تقدماً حينما كنّا متمسكين بالإسلام ولو بشكل نسبيّ، فباتفاق جميع الباحثين كان العالم الإسلامي منذ بداية ظهور الإسلام وحتى القرن الخامس بل القرن السادس الهجري، رائد الحضارة والثقافة في العالم، فالعالم الإسلامي هو الذي أوجد من القطع والأجزاء والعناصر المتناثرة للحضارات المختلفة عجينة وصنع منها حقيقة ناصعة باسم «الحضارة والثقافة الإسلامية». وكان العالَم المسيحي في ذلك الوقت يعيش أبشع حالات الوحشية والبربرية، مع أنه كان متمسكاً بشدة بالديانة المسيحية، وكان العالم الإسلامي متمسكاً بشكل نسبي بالإسلام. ومنذ أن تخلينا نحن عن الإسلام، وتخليتم أنتم عن المسيحية [ابتدأت مسيرة انحطاطنا، وبدأتم مسيرة التقدم]. فبعد الحروب الصليبية، وتبادل الاتصالات بين الشرق والغرب، وانتشار الرحلات [في البلاد المسيحية] وإقامة العلاقات مع حضارة الأندلس (إسبانيا) وإيفاد الطلبة المسيحيين إلى هناك والإقتباس من المسلمين، وبعد أن حطمتم القيود المسيحية وتوجهتم نحو المعايير الإسلامية؛ منذ ذلك الحين [بدأ عالَمكم يعطي ثماره]. وأساساً فإن ظهور المذهب البروتستاني كان نتيجة انفتاحكم على العالم الإسلامي. فمنذ اليوم الذي تخليتم عن المسيحية وتمسكتم بقواعد اخرى ـ من خارج العالم المسيحي وكان اكثر من نصفها مقتبساً من العالم الإسلامي ـ بدأ عالمكم يعطي ثماره المفيدة. ومنذ اليوم الذي تخلّيْنا نحن المسلمين عن واقع وحقيقة الإسلام، ولم يبق لنا سوى القشر والظاهر، بدأت مشكلاتنا وتخلفنا، فنحن نظن بأن الإسلام يُعمل به في أوساطنا ولكن الحقيقة هي خلاف ذلك[4].

(4) مطهري. مسأله شناخت [قضية المعرفة]، ص229-231.

القومية، عامل الوحدة أم التمزّق؟

قد نجد للتوجه القوميّ وإثارة المشاعر الوطنية تأثيرات إيّجابية ومفيدة في مجال استقلال بعض الشعوب، إلا أنه في البلاد الإسلامية كانت لهذه الطروحات تأثيرات عكسية حيث كانت التفرقة والتمزق هي النتيجة بدل الآثار الإيجابية. إن هذه الشعوب قد اجتازت هذه المرحلة [مرحلة المشاعر القومية] منذ قرون ودخلت مرحلة أعلى منها. فالإسلام أوجد منذ قرون وحدة الشعوب الإسلامية على أساس الفكر والعقيدة والإيديولوجيا. كما أثبت الإسلام في القرن العشرين بأنه قادر على أداء دور فعّال وحاسم في النضال ضد الاستعمار.

فالانتصارات التي أحرزها المسلمون في نضالهم ضد الاستعمار في القرن العشرين، كان الدور الأهم فيها لعامل الإسلام أكثر من عامل القومية. ومن مثل نضال الجزائر، وإندونيسيا، والبلاد العربية وحتى باكستان.

أجل! إن هذه الشعوب أثبتت منذ قرون قدرتها على الاتحاد بدوافع فكرية واعتقادية وعلى أساس الإيديولوجيا الواحدة، والانتفاض في وجه الاستعمار والتحرر منه. إن توجيه هذه الشعوب نحو عامل القومية هو خطوة رجعية حقّاً[5].

دفاع عن القومية أم حرب ضد الإسلام؟

نحن لا نستطيع أن نقف مكتوفي الأيدي حيال التيارات المناوئة للإيديولوجيا الإسلامية تحت يافطات الوطنية والقومية، ذلك لأننا نعتنق الإسلام وهو دينٌ وإيديولوجيا يرفض العرقية والقومية.

وإننا نعرف جميعاً أن هناك عدداً لا يحصى من الأفراد قد نشط في الفترة الأخيرة في شن حرب واسعة النطاق ضد الإسلام وذلك تحت يافطة الدفاع عن الوطنية والقومية[6]، وفي توجيه الإهانات للمقدسات الإسلامية تحت شعار النضال ضد العرب والقومية العربية.

---

(5) مطهري، خدمات متقابل إسلام وإيران [الإسلام وإيران، عطاء وإسهام]، ص35-36.

(6) إن الاتجاهات القومية في البلاد العربية هي الأخرى تتصاعد يوماً بعد آخر، بحيث نجد أن فئات كثيرة من أبناء هذه البلاد، رغم أنهم مسلمون، يؤكدون على انتمائهم =

وما نشاهده من آثار هذه الحرب المناوئة للإسلام في إيران على صفحات الكتب والصحف اليومية والمجلات الأسبوعية وغيرها، يدل على أن الأمر ليس صدفة، بل هي خطة محسوبة ولها أهداف معَيّنة[7].

= العربي وبعصبية خاصة. وهذا هو كما نعلم يعتبر نوعاً من المكافحة للأصول الإسلامية الواسعة التى تستند إلى الجوانب الإنسانية والمعنوية. وكما نعرف أيضاً فإن سلبيات هذا التوجه تعود بالدرجة الأولى عليهم أنفسهم، حيث نجد أن العرب رغم كثرتهم العددية ومعداتهم الحربية لم يستطيعوا مواجهة الإسرائيليين. ولا شك أن العرب لو كانوا يعتمدون على قدرتهم الدينية لما كانوا يواجهون هذه الهزيمة. يكتب أحد الكتاب الباكستانيين يقول: في حرب حزيران 1967 انتصرت قوة الديّن أيّ الصهيونية على قوة القومية. ورغم أن هذه الكلمة فيها شيء من المبالغة، ذلك لأن اليهود يقدمون العنصرية على الدِيّن دائماً، إلا أنها صحيحة من حيث أنها تخطي اعتماد العرب على القومية العربية اعتماداً لا طائل تحته. في العام المنصرم (1387هـ) حينما تشرفت بزيارة بيت الله الحرام استمعت إلى أحد العلماء العرب في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي وهو يقول صارخاً في كلمته: «والله، لم يدخل الإسلام المعركة قط»! وفعلاً لم يدخل الإسلام المعركة حتى الآن، فليس الإسلام هو الذي حارب إسرائيل بل القومية العربية حاربت الصهيونية.

(7) المصدر السابق، ص36-37.